البَابُ السَادسُ

علامات موت القلب

ولما كان الذكر هو سبب حياة القلب وتركه سبب موته . وفى الحديث :

« مَثَلُ الَّذِى يَذْكُرُ رَبَّهُ والذى لايذكر ربه كَمَثِل الْحَىِّ والمَيِّتِ »

ذكر علامة حياته وموته فى أول الباب السادس فقال : وقال رضى الله عنه :

[من علامات موت القلب عدم الحزن على مافاتك من الموافقات ، وترك الندم على مافعلت من وجود الزلات] .

قلت : موت القلب سببه ثلاثة أشياء : حب الدنيا ، والغفلة عن ذكر الله ، وإرسال الجوارح فى معاصى الله . وسبب حياته ثلاثة أشياء : الزهد فى الدنيا ، والاشتغال بذكر الله ، وصحبة أولياء الله . وعلامة موته ثلاثة أشياء : عدم الحزن على مافات من الطاعات ، وترك الندم على مافعلت من الزلات ، وصحبتك للغافلين الأموات ، وذلك لأن صدور الطاعة من العبد عنوان السعادة ، وصدور المعصية علامة الشقاوة ، فإن كان القلب حيًّا بالمعرفة والإيمان آلمه مايوجب شقاوته وأفرحِه مايوجب سعادته .

أو تقول : صدور الطاعة من العبد علامة على رضا مولاه ، وصدور المعصية علامة على غضبه . فالقلب الحى يحس بما يرضيه عند مولاه فيفرح ، ومايسخطه عليه فيحزن . والقلب الميت لايحس بشىء ، قد استوى عنده وجود الطاعة والمعصية ، لايفرح بطاعة وموافقة ، ولايحزن على زلة ولا معصية ، كما هو شأن الميت فى الحس . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَاتُهُ وَسَاءتْهُ سَيِّئَاتُهُ فَهُوَ مُؤمِنٌ » .

وقال عبد الله بن مسعود : المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن

يقع عليه ، والفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فأطاره اهـ . لكن لاينبغى للعبد أن يغلب النظر إلى جانب الذنب فيقل رجاؤه ويسىء الظن بسيده كما أشار إليه بقوله :

الخوف والرجاء

[لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله] .

قلت : الناس فى الخوف والرجاء على ثلاثة أقسام : أهل البداية ينبغى لهم تغليب جانب الخوف ، وأهل الوسط ينبغى لهم أن يعتدل خوفهم ورجاؤهم ، وأهل النهاية يغلبون جانب الرجاء ، أما أهل البداية فلأنهم إذا غلبوا جانب الخوف جدوا فى العمل وانكفوا عن الزلل ، فبذلك تشرق نهايتهم :

(وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)[1] .

وأما أهل الوسط ، فلأنهم قد انتقلت عبادتهم إلى تصفية بواطنهم فعبادتهم قلبية ، فلو غلبوا جانب الخوف لرجعوا إلى عبادة الجوارح ، والمطلوب منهم عبادة البواطن على رجاء الوصول وخوف القطيعة فيعتدل خوفهم ورجاؤهم .

وأما الواصلون فلا يرون لأنفسهم فعلا ولا تركاً ، فهم ينظرون إلى تصريف الحق وما يجرى به سابق القدر فيتلقونه بالقبول والرضا ، فإن كان طاعة شكروا وشهدوا منة الله ، وإن كان معصية اعتذروا وتأدبوا ولم يقفوا مع أنفسهم إذ لا وجود لها عندهم ، وإنما ينظرون إلى ما يبرز من عنصر القدرة ، فنظرهم إلى حلمه وعفوه وإحسانه وبره أكثر من نظرهم إلى بطشه وقهره ، ويرحم الله الشافعى حيث قال :

فَلَمَّا قَسَا قَلْبِى وَضَاقَتْ مَذَاهِبِى ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّى لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِى ذَنْبِى فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّى كانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَا زِلْتَ ذَا جُودٍ وَفَضْلٍ وَمِنَّةٍ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا
فيالَيتَ شعرِى هل أصيرُ لجنةٍ ... أُهنّا وإما للسَّعير فأندما

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .

قال تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1] .

وتأمل قضية الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم سأل راهباً فقال : له هل لى من توبة ؟ فقال له : لا توبة لك ، فكمل به المائة ثم أتى عالمًا فسأله ، فقال له : من يحول بينك وبينها ، ولكن اذهب إلى قرية كذا ففيها قوم يعبدون الله ، فكن فيهم حتى تموت ، فلما توسط الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إليهم أن قيسوا القرية التى خرج إليها والقرية التى خرج منها فإلى أيهما كان أقرب فهو من أهلها ، فأوحى الله إلى القرية التى يريد أن تَقارَبِي وإلى القرية التى خرج منها أن تَباعَدى ، فوجد أقرب إلى القرية التى يريد بشبر ، فأخذته ملائكة الرحمة ، والحديث فى الصحيحين نقلته بالمعنى .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : العامة إذا خوفوا خافوا ، وإذا رجوا رجوا ، والخاصة متى خوّفوا رجوا ومتى رجوا خافوا .

قال فى لطائف المنن : ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر ، فإذا خوّفوا خافوا ، إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله ، وأهل الله إذا خوفوا رجوا عالمين أن من وراء خوفهم وما خوفوا به أوصاف المرجو الذى لا ينبغى أن يقنط من رحمته ولا أن ييأس من منته ، فاحتالوا على أوصاف كرمه ، علماً منهم ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه وليردهم بذلك إليه ، وإذا رجَوا يخافون غيب مشيئته الذى هو من وراء رجائهم ، وخافوا أن يكون ما ظهر من الرجاء اختبارًا لعقولهم هل تقف مع الرجاء أو تنفذ إلى ما بطن فى مشيئته ، فلذلك أثار الرجاء خوفهم ا هـ .

ودخل الجنيد رضى الله عنه على شيخه السرى فوجده مقبوضًا ، فقال له مالك أيها الشيخ مقبوضًا ؟ فقال : دخل علىّ شاب فقال لى ما حقيقة التوبة ؟ فقلت له : ألا تنسى ذنبك ، فقال الشاب : بل التوبة أن تنسى ذنبك ، ثم خرج

---

(١) الزمر : ٥٣ .

عنى . قال الجنيد : فقلت الصواب ما قاله الشاب ، لأنى إذا كنتُ فى حالة الجفاء ثم نقلنى إلى شهود الصفا فذكر الجفاء فى حال الصفا جفاء ا هـ .

قلت : نظر السرى إلى أهل البداية ، ونظر الجنيد إلى أهل النهاية والكل صواب ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر موجب تصغير الذنب فقال :

[فإن من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه ذنبه]

قلت : بل من عرف ربه غاب عن رؤية ذنبه لفنائه عن نفسه بشهود ربه ، فإن صدر منه فعل يخالف الحكمة غلب عليه شهود النعمة قال تعالى : (نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وأما قوله تعالى : (وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)[1] فإنما هو لمن لم يتب .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَوْ أَذْنَبْتُم حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ الله عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ أَنّ الْعِبَادَ لَمْ يُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِهِمْ ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ آخرِينَ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

والله أفرح بتوبة عبده من الظمآن الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، لكن لا ينبغى أن يصغر عنده ذنبه حتى يغتر بحلم الله .

وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود قل لعبادى الصديقين لا يغتروا ، فإنى إن أقم عليهم عدلى وقسطى أعذبهم غير ظالم لهم ، وقل لعبادِىَ المذنبين : لا يقنطوا فإنه لا يعظم علىّ ذنب أغفره لهم ا هـ .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا بدت عين من الكريم ألحقت المسىء بالمحسن .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى حزبه : إلهى معصيتك نادتنى بالطاعة وطاعتك نادتنى بالمعصية ، ففى أيهما أخاف ، وفى أيهما أرجو ؟ إن قلت

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

بالمعصية قابَلتَنى بفضلك فلم تدع لى خوفاً ، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لى رجاء ، فليت شعرى كيف أرى إحسانى مع إحسانك ، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك ؟ ا هـ .

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه أن العبد إذا كان فى المعصية شهد قهرية الحق وعظمته وضعف نفسه وعجزه ، اكتسب من المعصية انكسارًا وذلا لنفسه وتعظيمًا وإجلالا لربه ، وهذا أفضل الطاعات فقد نادته معصيته التى هو فيها بالطاعة التى يجتنيها منها . وإذا كان فى الطاعة ربما شهد فيها نفسه وقصد متعته وحظه ، فأشرك بربه وأخل بأدبه ، وهذه معصية ، فإذا كان فى الطاعة نادته بهذه المعصية التى يجتنيها منها فلا يدرى من أيهما يخاف وأيهما يرجو ؟ وقوله إن قلت بالمعصية إلخ ، أى إن نظرت إلى صورة المعصية قابلتنى بفضلك فامتحى اسمها واندرس رسمها ، وإن نظرت إلى صورة الطاعة قابلتَنى بعدلك فاضمحلت وامتحت وبقى محض الرجاء من الكريم الوهاب الذى يعطى بلا سبب ويغطى بحلمه المناقشة والعتاب ، والله تعالى أعلم .

فتحصل أن العارف لا يقف مع معصية وإن جلت ، ولا مع طاعة وإن عظمت ، وهو معنى قوله :

[لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله] .

قلت : الصغيرة هى الجريمة التى لا وعيد فيها من القرآن ولا من الحديث ، والكبيرة هى التى تُوُعِّد عليها بالعذاب أو الحد فى القرآن أو فى السنة ، وقيل غير ذلك هذا كله بالنظر لظاهر الأمر ، وأما باعتبار ما عند الله من أمر غيبه وبالنظر إلى حلمه وعدله فقد يبرز خلاف ما يظن . قال تعالى :

(وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ)[1] .

فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية .

(فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)[2] .

وإن كانت الأعمال علامات فقد تختلف فى بعض المقدمات ، فوجب استواء

---

(١) الزمر : ٤٧ .

(٢) الفرقان : ٧٠ .

الرجاء والخوف فى بعض المقامات ، والتسليم لله فى كل الأوقات ، إذ قد تمت كلمات ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته ، فإذا قابلك الحق سبحانه وتعالى بعدلِه وجلالِه لم تبق لك صغيرة وعادت صغائرك كبائر ، وإذا واجهك الحق تعالى بفضله وكرمه وإحسانه وجماله لم تبق لك كبيرة وعادت كبائرك صغائر .

قال يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : إذا أنالهم فضلَه لم تبق لهم سيئة ، وإذا وضع عليهم عدلَه لم تبق لهم حسنة ا هـ . وقيل لو وزن رجاء المؤمن وخوفه ما رجح أحدهما على الآخر ، بل المؤمن كالطائر بين جناحين أو كما قيل ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

قلت : وحديث الرجل تمد له تسع وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ، ثم تخرج له بطاقة قدر الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتطيش تلك السجلات ، يدل على عظيم حلمه ورحمته وشمول كرمه ومنته .

ولما ذكر رضى الله عنه علامة موت القلب ذكر الأعمال التى توجب حياته فقال :

[لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويتحقر عندك وجوده] .

قلت : هكذا هى نسخة الشيخ بلفظ القلوب ، وهى أوفق بالسياق إذ الكلام كله فى موت القلوب وحياتها .

يعنى أنه لا عمل أرجى لحياة القلوب من عملٍ يكون بالله ولله غائباً فيه عما سواه ، غير ملاحظ فيه حظوظه وهواه ، متبرئًا فيه من حوله وقواه ، فإذا أظهرته عليه القدرة غاب عن شهوده وصغر فى عينه صورة وجوده ، لما تجلى فى قلبه من عظمة مولاه ، فصغر عنده كل ما سواه ، فمنل هذا العمل تحيا به القلوب ، وتحظى بمشاهدة علام الغيوب ، وهو روح اليقين ، وهو حياة قلوب العارفين ، فإذا أراد الله أن يتولى عبده أنهضه للعمل وصغّره فى عينه ، فلا يزال جادًّا فى عمل الجوارح حتى ينقله إلى عمل القلوب ، فتستريح الجوارح من التعب ، ولا يبقى إلا شهود العظمة مع الأدب .

قال النهرجورى رحمه الله : من علامات من تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى إخلاصه ، والغفلة فى أذكاره ، والنقصان فى صدقه ، والفتور فى

مجاهدته ، وقلة المراعاة فى فقره ، فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ، ويزداد فقراً إلى الله فى قصده وسيره حتى يغنى عن كل شىء دونه ا هـ .

الواردات الإلهية

وإذا حَيِى القلب بمعرفة الله كان محلا لتجلى الواردات الإلٰهية ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا] .

قلت : الوارد نور إلهى يقذفه الله فى قلب من أحب من عباده ، وهو على ثلاثة أقسام ، على حسب البداية والوسط والنهاية . أو تقول : على حسب الطالبين والسائرين والواصلين .

القسم الأول ، وارد الانتباه : وهو نور يخرجك من ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، وهو لأهل البداية من الطالبين ، فإذا تيقظ من نومه وانتبه من غفلته استوى على قدمه طالبًا لربه ، فيقبل عليه بقلبه وبقالبه ، وينجمع عليه بكليته .

القسم الثانى ، وارد الإقبال : وهو نور يقذفه الله فى قلب عبده فيحركه لذكر مولاه ويغيبه عما سواه ، فلا يزال مشتغلا بذكره غائباً عن غيره ، حتى يمتلئ القلب بالنور ، ويغيب عما سوى المذكور ، فلا يرى إلا النور ، فيخرج من سجن الأغيار ويتحرر من رق الآثار .

القسم الثالث ، وارد الوصال : وهو نور يستولى على قلب العبد ثم يستولى على ظاهره وباطنه ، فيخرجه من سجن نفسه ويغيبه عن شهود حسه . وقد أشار إلى القسم الأول وهو وارد الانتباه بقوله : إنما أورد عليك إلخ ، أى إنما أشرق عليك نور اليقظة والانتباه وهو الوارد ، لتكون بسببه واردًا عليه وسائراً إليه ، ولو لم يورد عليك هذا الوارد لبقيت فى وطن غفلتك نائمًا فى سكرتك دائما فى حسرتك .

ثم أشار إلى القسم الثانى وهو وارد الإقبال فقال :

[أورد عليك الوارد ، ليتسلمك من يد الأغيار ، وليحررك من رق الآثار] .

أى إنما أورد عليك وارد الإقبالِ ، ليؤنسك بذكر الكبير المتعال ، فإذا اشتغلت بذكره وغبت عن غيره تسلمك : أى أنقذك من يد لصوص الأغيار بعد أن شدوا أوثاقك بحبل هواك ، وسجنوك فى سجن حظوظك ومناك ، وليحررك ويعتقك أيضاً من رق الآثار ، بعد أن ملكتك بما أظهرته لك من زخرف الاغترار . فإذا تسلمت من يد الأغيار أفضيت إلى شهود الأنوار ، وإذا تحررت من رق الآثار ترقيت إلى شهود الأسرار ، فالأنوار أنوار الصفات ، والأسرار أسرار الذات ، فالأنوار لأهل الفناء فى الصفات ، والأسرار لأهل الفناء فى الذات .

ثم أشار إلى القسم الثالث وهو وارد الوصول فقال :

[أورد عليك الوارد ، ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك] .

أى إنما أورد عليك وارد الوصال ، بعد أن أهب عليك نفحات الإقبال ، ليخرجك من سجن رؤية وجودك إلى فضاء ، أى اتساع شهودك لربك ، فرؤيتك وجودَك مانعة لك من شهود ربك ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، وجودك ذنب لا يقاس به ذنب ، وأنشد الجنيد :

وجُودِى أَنْ أَغِيبَ عَنِ الْوُجُودِ ... بِمَا يَبْدُو عَلَىَّ مِن الشهُودِ

فالفناء عن النفس وزوالها أصعب من الفناء عن الكون وهدمه ، فمهما زالت النفس وهدمت انهدم الكون ولم يبق له أثر ، وقد يهدم الكون وتبقى فى النفس بقية ، فلذلك قدم الشيخ رق الأكوان على سجن وجود الإنسان ، والله تعالى أعلم .

ثم فسر تلك الواردات فقال :

[الأنوار مطايا القلوب والأسرار] .

قلت : النور نكتة تقع فى قلب العبد من معنى اسم أو صفة ، يسرى معناها فى كليته حتى يبصر الحق والباطل إبصارًا لا يمكنه التخلف معه عن موجبه ، قاله الشيخ زروق .

والمطايا : جمع مطية ، وهى الناقة المهيأة للركوب . والقلوب : جمع قلب ،

وهو الحقيقة القابلة للمفهومات . والأسرار: جمع سر ، وهو الحقيقة القابلة للتجليات . والسر أدق وأصفى من القلب : والكل اسم للروح ، فإن الروح ما دامت مظلمة بالمعاصى والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفسًا ، فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير سميت عقلا ، فما زالت تتقلب فى الغفلة والحضور فلذلك سميت قلباً ، فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحاً ، فإذا تصفت من غبش الحس سميت سرًّا لكونها صارت سرًّا من أسرار الله حين رجعت إلى أصلها وهو سر الجبروت ، فإذا أراد الله تعالى أن يوصل عبده إلى حضرة قدسه ويحمله إلى محل أنسه أمده بواردات الأنوار كالمطايا ، فيحمل عليها فى محفة العناية مروّحًا عليه بنسيم الهداية ، محفوفًا بنصرة الرعاية ، فترحل الروح من عوالم البشرية إلى عوالم الروحانية حتى تصير سرًّا من أسرار الله لا يعلمها إلا الله :

(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى)[1] .

فالأنوار التى هى الواردات مطايا القلوب تحملها إلى حضرة علام الغيوب ، وهى أيضاً مطايا الأسرار تحملها إلى جبروت العزيز الجبار ، فالسلوك هداية ، والجذب عناية ، فوارد الانتباه والإقبال حمله سلوك وارد الوصال حملة جذب ، فالأنوار التى هى مطايا القلوب تحملهم على جهة السلوك إلا أنهم محمولون فيه بحلاوة نور الانتباه والإقبال ، فصار سلوكهم كأنه جذب .

وأما الأنوار التى تحملهم على مطايا الأسرار ، فإنها تحملهم على جهة الجذب ممزوجاً بسلوك فيكونون بين جذب وسلوك ، وهذا الحمل أعظم ، والله تعالى أعلم .

ثم بين كيفية السير على هذه المطايا وما يعوقها عن السير فقال :

[النور جند القلب ، كما أن الظلمة جند النفس ، فإذا أراد الله أن ينصر عبده أمده بجنود الأنوار ، وقطع عنه مدد الظلم والأغيار] .

قلت : الظلمة نكتة تقع من الهوى فى النفس عن عوارض الوهم فتوجب العمى عن الحق ؟ لتمكن الباطل من الحقيقة ، فيأتى العبد ويذر على غير بصيرة

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

قاله الشيخ زروق .

قلت : قد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر أسماء لمسمى واحد ، وهو اللطيفة الربانية النورانية المودعة فى هذا القالب الجسمانى الظلمانى ، وإنما اختلفت أسماؤها باختلاف أحوالها وتنقل أطوارها ، ومثال ذلك كماء المطر النازل فى أصل الشجر ، ثم يصعد فى فروعها فيظهر ورقاً ثم نورًا وأزهارًا ، ثم يعقد ثمرة ينمو حتى يكمل ، فالماء واحد واختلفت أسماؤه باختلاف أطواره ، هكذا قال الساحلى فى بغيته . وقد نظمت فى ذلك قصيدة ذكرت فى غير هذا الكتاب ، فعلى هذا يكون تقابل القلب مع النفس بالمحاربة كناية عن صعوبة انتقال الروح من وطن الظلمة التى هى محل النفس إلى وطن النور الذى هو الطلب وما بعده . فالقلب يحاربها لينقلها إلى أصلها ، وهى تتقاعد وتسقط إلى أرض البشرية وشهواتها ، فالقلب له أنوار الواردات تقربه وتنصره حتى يترقى إلى الحضرة التى هى أصله وفيها كان وطنه ، وكأنها جنود له من حيث إنه يتقوى بها وينتصر على ظلمة النفس ، وهذه الأنوار هى الواردات المتقدمة ، والنفس لما ركنت إلى الشهوات واستحلتها صدرت كأنها جنود لها ، وهى ظلمة من حيث إنها حجبتها عن الحق ومنعتها من شهود شموس العرفان ، فإذا هاجت النفس بجنود ظلماتها وشهواتها إلى معصية أو شهوة رحل إليها القلب بجنود أنواره فيلتحم بينهما القتال ، فإذا أراد الله عناية عبده ونصره أمد قلبه بجنود الأنوار وقطع عنه من جهة النفس مدد الأغيار ، فيستولى النور على الظلمة وتولى النفس منهزمة ، وإذا أراد الله خذلان عبده أمد نفسه بالأغيار ، وقطع عن قلبه شوارق الأنوار ، فيأتى المنصور بالأمر على وجهه ، والمخذول بالشىء على عكسه .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأمداد الأنوار ثلاثة : أولها يقين لا يخالطه شك ولا ريب . الثانى علم تصحبه بصيرة وبيان . الثالث إلهام يجرى بعد العيان .

وأمداد الظلم ثلاثة : أولها ضعف اليقين . ثانيها غلبة الجهل على النفس . ثالثها الشفقة على النفس ، وذلك كله أصله الرضا عن النفس وعدمه ، ومظهره

الثلاث المرتبة عليه ، وهى المعاصى والشهوات والغفلات ، وأضدادها المتقدمة فى الباب الثالث فافهم ا هـ .

أمداد الأنوار

ولما كان النور هو جند القلب ، لأنه يكشف عن حقائق الأشياء ، فيتميز الحق من الباطل ، فيحق الحق ويبطل الباطل ، فينتصر القلب بإقباله على الحق على بينة واضحة ، وتنهزم النفس بانهزام جند ظلماتها ، إذ لا بقاء للظلمة مع وضوح النور ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار] .

قلت : النور من حيث هو من شأنه أن يكشف الأمور ويوضحها حتى يظهر حسنها من قبيحها ، ومن شأن البصيرة المفتوحة أن تحكم على الحسن بحسنه وعلى القبيح بقبحه والقلب يقبل على ما يثبت حسنه ويدبر عن ما يثبت قبحه .

أو تقول : يقبل على ما فيه نفعه ويدبر عما فيه ضرره ، ومثال ذلك : رجل دخل بيتاً مظلماً فيه عقارب وحيات وفيه سبائك ذهب وفضة ، فلا يدرى ما يأخذ ولا ما يذر ولا ما فيه نفع ولا ضرر . فإذا أدخل فيه مصباحاً رأى ما ينفعه وما يضره ، وما يأمنه وما يحذره ، كذلك قلب المؤمن العاصى لا يفرق بين مرارة المعصية وحلاوة الطاعة ، فإذا استضاء بنور التقوى عرف ما يضره وما ينفعه ، وفرق بين الحق والباطل ، قال تعالى :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)[1] .

أى نوراً يفرق بين الحق والباطل . وقال تعالى :

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ)[2] .

وقال تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ)[3] .

---

(١) الأنفال : ٢٩ . (٢) الأنعام : ١٢٢ . (٣) الزمر : ٢٢ .

وهذا النور الذى يكشف الأمور هو نور الواردات المتقدمة الذى هو مطايا إلى علام الغيوب .

أولها : نور وارد الانتباه ، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الغفلة . ويظهر نور اليقظة ، فتحكم البصيرة بقبح الغفلة وحسن اليقظة ، فيقبل القلب حينئذ على ذكر ربه ويدبر عما يغفله عن ربه ، وهذا هو نور الطالبين .

الثانى : نور وارد الإقبال ، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الأغيار ، ويظهر بهجة المعارف والأسرار ، فتحكم البصيرة بضرر الأغيار وحسن الأسرار ، فيقبل القلب على بهجة الأسرار ، ويدبر عن ظلمة الأغيار ، وهذا هو نور السائرين .

الثالث : نور وارد الوصال ، ومن شأنه أن يكشف ظلمة الكون ورداء الصون ، ويظهر نور تجليات المكون فيقبل القلب على مشاهدة مولاه ، ويدبر عن الالتفات إلى ما سواه ، وهذا هو نور الواصلين وهو نور المواجهة ، ونور ما قبله نور التوجه .

وإن شئت قلت : هو نور الإسلام والإيمان والإحسان ، فنور الإسلام يكشف ظلمة الكفر والعصيان ، ويظهر نور الانقياد والإذعان ، فتحكم البصيرة بقبح الكفر والعصيان ، وحسن نور الإسلام والإذعان ، فيقبل القلب على طاعة ربه ويعرض عما يبعده من ربه ، ونور الإيمان يكشف ظلمات الشرك الخفى ويظهر بهجة الإخلاص والصدق الوفى ؛ فتحكم البصيرة بقبح الشرك وضرره وحسن الإخلاص وخيره ، فيقبل القلب على توحيد ربه ويعرض عن الشرك وشره ، ونور الإحسان يكشف ظلمة السوى ويظهر نور وجود المولى ، فتحكم البصيرة بقبح ظلمة الأثر وحسن نور المؤثر ، فيقبل القلب على معرفة مولاه ويغيب بالكلية عما سواه .

وإن شئت قلت : هذا النور هو نور الشريعة والطريقة والحقيقة ، فنور الشريعة يكشف ظلمة البطالة والتقصير ، ويظهر نور المجاهدة والتشمير ، فتحكم البصيرة بقبح البطالة وحسن المجاهدة ، فيُقبِل القلب على مجاهدة الجوارح فى طاعة مولاه ، ويدبر عن متابعة حظوظه وهواه ، ونور الطريقة يكشف ظلمة المساوئ والعيوب ، ويُظهر بهجة الصفاء وما يثمره من علم

الغيوب ، فتحكم البصيرة بقبح العيوب وحسن الصفا وعلم الغيوب ، فيُقبل القلب على ما يوجب التصفية ويُدْبر عما يمنعه من التخلية والتحلية ، ونور الحقيقة يكشف ظلمة الحجاب ، ويظهر له محاسن الأحباب .

أو تقول : نور الحقيقة يكشف له ظلمة الأكوان ، ويظهر نور الشهود والعيان ، فيقبل القلب على مشاهدة الأحباب داخل الحجاب ، ويدبر عما يقطعه عن الأدب مع الأحباب ، جعلنا الله معهم على الدوام فى هذه الدار وفى دار السلام آمين .

الفرح بالطاعة

ولما كان أصل كل نور وسر وخير هو طاعة الله ، وأصل كل ظلمة وحجاب وبعد هو معصية الله . ومن علامة حياة القلب فرحُه بالطاعة وحزنه على صدور المعصية ، نبهك الشيخ على وجه الفرح بالطاعة التى هى سبب نور القلوب ومفاتيح الغيوب ، فقال :

[لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)] .

قلت : قد تقدم فى الحديث : « من سرَّته حسناتُه وساءتْهُ سيِّئاتُه فهوَ مؤمنٌ » . والناس فى الفرح بالطاعة على ثلاثة أقسام .

قسم فرحوا بها لما يرجون عليها من النعيم ويدفعون بها من عذابه الأليم ، فهم يرون صدورها من أنفسهم لأنفسهم ، لم يتبرءوا فيها من حولهم وقوتهم ، وهم من أهل قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) .

وقسم فرحوا بها من حيث إنها عنوان الرضا والقبول ، وسبب فى القرب والوصول ، فهى هدايا من الملك الكريم ، ومطايا تحملهم إلى حضرة النعيم ، لا يرون لأنفسهم تركًا ولا فعلا ، ولا قوة ولا حولا ، يرون أنهم محمولون بالقدرة الأزلية ، مصروفون عن المشيئة الأصلية ، وهم من أهل قوله تعالى :

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

فأهل القسم الأول عبادتهم لله ، وأهل القسم الثانى عبادتهم بالله وبقدرة الله ، وبينهما فرق كبير .

وقسم ثالث فَرَحهم بالله دون شيء سواه ، فانون عن أنفسهم ، باقون بربهم ، فإن ظهرت منهم طاعة فالمنة لله ، وإن ظهرت منهم معصية اعتذروا لله أدبًا مع الله ، لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلة ، ولا يزيد إن ظهرت منهم طاعة أو يقظة ، لأنهم بالله ولله من أهل لا حول ولا قوة إلا بالله وهم العارفون بالله ، فإن ظهرت منك أيها المريد طاعة أو إحسان فلا تفرح بها من حيث إنها برزت منك فتكون مشركا بربك ؛ فإن الله تعالى غنى عنك وعن طاعتك ، وغنى عن أن يحتاج إلى من يطيعه سواه . قال الله تعالى :

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن ربه عز وجل :

« يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَازَادَ ذٰلِكَ فى مُلْكِى شَيْئًا » الحديث .

وافرح بها من حيث إنها هدية من الله إليك ، تدل على أنك من مظاهر كرمه وفضله وإحسانه ، فالفرح إنما هو بفضل الله وبرحمته ، قال تعالى :

(قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)[2] .

ففضل الله هو هدايته وتوفيقه ، ورحمته هو اجتباؤه وتقريبه ، وقيل فضل الله الإسلام ، ورحمته القرآن ، وقيل فضل الله هداية الدين ، ورحمته جنة النعيم ، وقيل فضل الله توحيد الدليل والبرهان ، ورحمته توحيد التشهود لنيان ، وقيل غير ذلك ، والله تعالى أعلم .

ولما كان الفرح بالطاعة قد يتوهم أنه فرع رؤيتها والنظر إليها رفع ذلك ، فقوله :

[قطع السائرين له والواصلين إليه ، عن رؤية أعمالهم ، وشهود

---

(١) العنكبوت : ٦ . (٢) يونس : ٥٨ .

أحوالهم . أما السائرون ، فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها . وأما الواصلون ، فلأنه غيبهم بشهوده عنها] .

قلت : قطع هنا بمعنى غيب ، ولو عبر به لكان أظهر وأسهل ، لما فى التعبير بالقطع من الشؤومة ، وفى عبارته شىء من النقص ، فلو قال غيب السائرين له عن رؤية أعمالهم وأحوالهم والواصلين إليه عن رؤية وجودهم ؛ أماالسائرون فلأنهم لم يتحققوا فيها الصدق مع الله ، وأما الواصلون فلأنهم لم يشهدوا مع الله سواه ، يعنى أن الحق تعالى غيب السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم الظاهرة وشهود أحوالهم الباطنة . أما السائرون فلأنهم يتهمون أنفسهم على الدوام ، فمهما صدر منهم إحسان ، ولاح لهم يقظة أو وجدان رأوها فى غاية الخلل والنقصان ، فاستحيوا من الله أن يعتمدوا عليها أو يعتدوا بها ، فغابوا عن أعمالهم وأحوالهم ، واعتمدوا على فضل ربهم ، فالصدق هو لُبُّ الإخلاص وسره ؛ أى لم يتحققوا بسر الإخلاص فيها فلم يروها ولم يركنوا إليها .

سئل بعض العارفين : ما علامة قبول العمل ؟ قال : نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية ، بدلالة قوله تعالى :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[1] .

وقال زين العابدين رضى الله عنه : كل شىء من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لم يقبل ، لأن المقبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك فذاك دليل على القبول .

وأما الواصلون فلأنهم فانون عن أنفسهم غائبون فى شهود معبودهم ، فحركاتهم وسكناتهم كلها بالله ومن الله وإلى الله ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه ، فإن ظهرت عليهم طاعة أو صدر منهم إحسان شهدوا فى ذلك الواحد المنان .

وحكى عن الواسطى رحمه الله : أنه لما دخل نيسابور سأل أصحاب عثمان بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير

---

(١) فاطر : ١٠ .

فيها ، فقال أمركم بالمجوسية المحضة ، هلا أمركم بالغيبة عنها بشهود مجريها ومنشيها اهـ .

قال القشيرى : أراد صيانتهم عن الإعجاب ودلالتهم على الآداب اهـ . فضمير قطع يعود إلى الحق سبحانه وتعالى والسائرين والواصلين مفعول به .

واعلم أن السائرين فى كلام الشيخ هم القسم الثانى الذين فرحهم بالطاعة من حيث إنها عنوان القبول ولا يلزم من الفرح بها رؤيتها ، إذ قد يفرح بها من حيث إنها منة من الله ، ويقطع رؤيته عنها من حيث اعتماده على الله . والواصلون هنا هم القسم الثالث الذين هم فرحهم بالله دون شىء سواه ، والله تعالى أعلم .

هذا آخر الباب السادس ، وبه انتهى ربع الكتاب ، وحاصلها علاج القلوب ، وعلامة موتها ومرضها وصحتها ، واستمداد أنوارها ، واتصال وارداتها حتى تغيب عن شهود أعمالها وأحوالها ، وتفنى عن دائرة حسها باتساع فضاء شهودها ، وفى ذلك شرفها وعزها ، وفى ضد ذلك وهو رؤية المخلوق والركون إليه ذلها وهوانها .